

منظومة «أس 300» الصاروخية الدفاعية الروسية تصل إلى إيران... و«إسرائيل» يصيبها الرعب!



إعداد وترجمة: ليلي زيدان عبد الخالق

«إنها دفاعية، دفاعية، هل فهمتم هذه الأحرف؟»، هذا هو لسان حال روسيا حيال منتقديها، ومن يشن عليها الهجوم تلو الآخر، بعد إحياء صفقة صواريخ «أس 300» الدفاعية بينها وبين إيران. لا سيما سيّدة المستشيطين «إسرائيل»، التي هاجمت قبلاً. ولا تزال. التقارب الأميركي الأوروبي. الإيراني حول ملف الأخيرة النووي، واتفاق الإطار الذي وقّع مؤخراً في لوزان بين «السداسية الدولية» وطهران. ولم تتوان «إسرائيل» عن توصيف بيع منظومة الصواريخ الروسية لإيران، بأنه يشكل «أولى ثمار اتفاق لوزان» معتبرة أنه أصبح التهديد بمهاجمة إيران عسكرياً أمر فارغ من المضمون!

حتى حق الدفاع عن النفس لا تريده «إسرائيل» للدول التي تقع تحت مرمى تهديدها. لذلك نراها يومياً تهاجم تزويد حزب الله والمقاومة الفلسطينية بالأسلحة المتطورة. وشعباً و جيشاً ومقدّرات، وبأخطاها تقف كالضفدع لمحاولة عرقلة أيّ تقارب دولي مع إيران.

ونجدنا تقول في إعلامها: «لو كان لدى إيران اليوم صواريخ أس 300 تنفيذية، وقّرت إسرائيل مهاجمتها صباح غد، لكانت هذه أوبيراً مختلفة تماماً، وذلك لأن هذا سيكون عائقاً أعلى بكثير من ذلك الذي وقف أمام سلاح الجو في حملة أوبيرا التي دمر فيها المفاعل النووي في العراق. غير أن الإيرانيين لا يملكون حالياً صواريخ كهذه، ويبدو أنه لن تكون لهم في السنتين. الثلاث سنوات القريبة المقبلة. أما في إسرائيل، التي لم تهاجم إيران في السنوات العشر التي كان يمكنها فيها أن تهاجمها. يبدو أنه لا وجود لمن يتخذ قراراً كهذا في المستقبل المنظور. وبالتالي يمكن، ظاهراً، التحلي بالهدوء. غير أن الواقع أكثر تعقيداً بكثير: فنحن نوجد في ذروة أزمة دولية أخذت في التناغم ونبداً في احتمال آثارها..»

أولى ثمار اتفاق لوزان

ونقلت صحيفة «فورين بوليسي» عن «إسرائيل توداي» مقالاً جاء فيه: في السنوات الأخيرة، امتنعت روسيا عن تزويد إيران بمنظومة الصواريخ الاستراتيجية «أس 300» لأسباب، منها الجهود «الإسرائيلية» الكبيرة من خلال إدراك «إسرائيل» أن وصول تلك المنظومة سيُصعب عملية عسكرية في أجواء إيران من أجل مهاجمة المنشآت النووية. من بين تلك الجهود قام رئيس الوزراء نتنياهو بزيارة في شباط 2010 إلى روسيا من أجل فني الروس عن بيع منظومة الصواريخ المتطورة لإيران. على رغم اتفاق موقع لبيع المنظومة لإيران، فقد قامت روسيا بإلغائه في فترة الرئيس ديمتري مدفيديف. حتى لو لم يكن «الإسرائيليون» العنصر المباشِر أو الأكثر أهمية في القرار الروسي، فمن الواضح أن جهود «إسرائيل» التي لم تنقطع ساهمت في هذه القضية واتمرت.



يمكنها فيها أن تهاجمها. يبدو أنه لا وجود لمن يتخذ قراراً كهذا في المستقبل المنظور. وبالتالي يمكن، ظاهراً، التحلي بالهدوء. غير أن الواقع أكثر تعقيداً بكثير: فنحن نوجد في ذروة أزمة دولية أخذت في التناغم ونبداً في احتمال آثارها.

قبل كل شيء، ثمة قصة سياسية ترمز إلى انهيار نظام العقوبات على إيران. فلم يوقع بعد الاتفاق بين إيران والقوى العظمى، وإد بالروس بوجهن صفقة رثاة إلى الإدارة الأميركية وحلفائها، فقد جاء البيان من الكرملين بالتوازي مع زيارة وفد أممي إيراني رفيع المستوى إلى موسكو، برئاسة رئيس اللجنة الخارجية والأمن في البرلمان الإيراني علاء الدين بورجاري، ورئيس المجلس الأعلى للأمن القومي آية الله علي سمحاني. وهذا دليل آخر على أن للإيرانيين وللروس خطاً بعيداً المدى لتوثيق العلاقات وللمعودة إلى التعاون الأمني، بما في ذلك بيع السلاح.



جميع أشكال العقوبات يوم التوقيع على الصفقة. بينما تؤكد إدارة أوباما على الاحتفاظ بسياسة «هندسة العقوبات» إلى حين التأكد من أن إيران ستلتزم عدم نقض أي من شروط الاتفاق. وأضاف المرشد الأعلى أنه «يجب على أجدنا عدم السماح بحدوث ثغرات في مجالي الأمن والدفاع عن الدولة بحجة التفتيش..» وهذا يُعتبر مجحفاً بحق البيت الأبيض الذي تعهد الإبقاء على سياسة التدخل التفتيشية في ما يختص بالنظام الإيراني.

نتيجة واحدة نستطيع أن نستخلصها من كل هذا، يسعى آية الله إلى تعزيز نفوذ إيران النفاذ في المحادثات الجارية، من خلال اعتماد مواقف متشددة، يلقي المرشد الأعلى باللائمة على القوى الغربية بهدف دفعها إلى بلوغ تنازلات بالحد الأدنى. وفي النهاية، سيسير الطرفان بعيداً من مواقعهما المتطرفة للوصول إلى الحلول الوسطى، والتي ستلبي احتياجاتهما الأساسية.

ما ذكرناه آنفاً، يُعتبر غريباً من ناحية الدبلوماسية. فقد تحقّق الجانبان في بحث التفاصيل على مدى شهر مضى وتوصلوا إلى اتفاقيات خلافة. وكان أحد المفاوضات الإيرانية الإيرانية قد أعلن الخميس الماضي على لسان المرشد الأعلى خلال مقابلة أجريت معه، أن تخفيف العقوبات سيكون تدريجياً، واعترف بالوقت عينه، أن تسوية إنهاء العقوبات ستستغرق فترة طويلة، ولا يبدو أن المرشد الأعلى قد دعم موقف الدبلوماسيين في هذا التصريح غير المباشر، بل إنه أضعفهم.

الأز. تراجعت روسيا عن قرارها بالاتجاه المعاكس، ويمكننا أن نعزو تغيير الروس اتجاههم، لتصدّع العلاقات بينهم وبين الغرب، وللتوتر الشديد الذي نشأ في أعقاب الحرب في أوكرانيا، حيث يتحارب هناك اللاعبان على تحقيق أكبر عدد من نقاط التأثير. لكن هذه العلاقة مشكوك فيها في الأساس إذا أخذنا في الاعتبار تصريحات أوساط رفيعة المستوى في روسيا.

2010 أعلنت روسيا أنها قد ألغت صفقة السلاح مع إيران في أعقاب مجموعة من الاعتراضات الاقتصادية التي فرضت على طهران. هذه العقوبات صودق عليها في مجلس الأمن وحظرت نقل رسائل قتالية من نوع منظومة «أس 300».

في سياق متصل، قال وزير الخارجية الروسي، سيرغي لافروف، إن قرار السماح بتنفيذ صفقة السلاح يرتبط بصورة مباشرة بالمحادثات النووية: «لم تعد هناك حاجة لحظر بيع صواريخ أس 300 لإيران، ذلك الحظر الذي انتهت روسيا في الماضي بمبادرة منها».

بناءً على ذلك، فإن القرار الروسي هو نتيجة السياسة الخارجية المسالمة لإدارة أوباما، التي تسمح الآن لعقوبات غير مسبقة. صودق عليها بصورة نادرة من قبل كل الدول العظمى - أن تتفكك وتتطاير في الهواء. وذلك على رغم عدم وجود أي توقيع رسمي على الاتفاق بعد، وأن التهامات التي تمّ التوصل إليها هي مجرد تقاهات شقوية. وبسبب كل هذا، يمكننا ضمّ الطلب الأميركي لتقليص نظام العقوبات بصورة تدريجية، إذا أذنت الإيرانيون في المستقبل تعهداتهم. الإشارات الخطيرة في الاتفاق تنقلها اليوم وقبل أن يطلب من الإيرانيين التوقيع على بند واحد منه.

في الأسبوع الماضي، أشار وزير الدفاع الأميركي أشتون كارتير، إلى هجوم أميركي محتمل على إيران إذا لم تحترم الاتفاق النووي، ولكن الشرعية الدولية للطائرات، إضافة إلى الحماية الروسية والصينية، تحوّل هذا التهديد الأميركي إلى تهديد فارغ من المضمون تقريباً.

أوباما في مهبط الانتقادات

ونشرت صحيفة «واشنطن بوست» الأميركية مقالاً أمس حول ما وصفته بـ«أمنية الرئيس الأميركي باراك أوباما» التي أعرب عنها في كانون الأول الماضي، في أن يرى إيران «قوة إقليمية ناجحة جداً».

وقالت الصحيفة: إن أمانة الرئيس أوباما، التي تشكل كابوساً للدول العربية والمالية للغرب، بدأت تصير واقعاً ملموساً.

ففي خليج عدن، ترسل إيران أسطولاً من السفن الحربية وبارات الأسلحة لتعزيز تمرد الحوثي في اليمن، لتؤكد مكانتها كمتمركز ووسط إقليمي، وأمريكا لم تحرك ساكناً، وفي الوقت ذاته، تضغط على السعودية لوقف العملية الجوية هناك، والمواقفة على التفاوض في شأن تسوية سياسية تشمل إيران.

وهناك روسيا التي أعلنت عن بيعها صواريخ متقدمة لإيران بعد خمس سنوات من التوقف، وهو ما يعزّز مناعة منشآتها النووية ضد أي هجوم، وأيضاً لم يكن هناك أي رد فعل من أوباما. وكذلك الموقف من سورية، حيث تبنت أميركا سياسة عدم الاقتراب من نظام وصفه وزير خارجيتها بأنه «دمية إيرانية» بعد الإصرار لسنوات على ضرورة تنحي الرئيس بشار الأسد.

وهناك أيضاً قائد «فيلق القدس» الإيراني قاسم سليماني، قائد الميليشيات الشعبية التي قتلت مئات الأميركيين أثناء حرب العراق، لا يزال يعمل بحرية في أنحاء العراق متباهياً بهيمنة بلاده بمساعدة علماء جوي أميركي.

هذا هو الشرق الأوسط الجديد الذي يبدو واقعته الاستراتيجية الجديد واضحا للجميع، تصعد فيه إيران وتتلقى مساعدة مثيرة للدهشة من قبل الولايات المتحدة.



على المقلب الآخر، تطالعنا نظرية أخرى ترتبط بالسياسة المحلية ومحاوله خامنئي تأكيد دعمه اللامتناهي لأصحاب المتهشدين الداعمين بقوة لتطوير برنامج إيران النووي. وتكاد هذه الحجة تكون الإشكالية الأبرز لدى قادة الكتلة المحافظة، بمن في ذلك قادة الحرس النووي، الذين دعموا الاتفاق المبدي. أما موقف المرشد الأعلى الأخير، فيجعل من المستحيل على المتشددين أن ينظروا إليه مقدماً لهم الدعم حول أي إرشاد لدعم الاتفاق. بل يضمنون أن الاتفاق سيركز على موافقة الداخل الذي خربته مواقف الخامنئي. إن الهدف الأكثر أهمية في خطاب آية الله لم يكن قطعاً العقوبات أو التفتيش. يقول البعض أنه أشرف بنفسه على بعض التفاصيل في المفاوضات، غير أن ذلك لا يبدو دقيقاً، بل لا يزال الأمر أبعد من هذا بكثير، إنه يرتبط بمسألة عدم تجاوز الخطوط الحمراء من قبل الرئيس ورئيس وزرائه. ومن هذا المنطلق، فإن المرشد الأعلى بهذا الموقف يعمل على حماية الرئيس الإيراني حسن روحاني من تنازلات قد تقدم عليها وزير خارجيته محمد جواد ظريف.

ومن الإنصاف أن نطرح سؤالاً للداخل الجاني الذي يبذل إليه هؤلاء المفاوضات. فإذا كانت أهم شخصية صانعة للقرار الإيراني لا تتدخل في تفاصيل المحادثات، وغير رغبة. بما لا يقبل الشك. في تقديم تنازلات تُذكر في المفاوضات، فما هي القيمة الحقيقية أو الهدف الفعلي وراء هذه الاتفاقيات؟ هل يمكن الوثوق بوفاء إيران بالتزاماتها في حال لم يرغب المرشد الأعلى باستقبال الدبلوماسيين في منزله؟ ربما على المراقبين قراءة أبعاد خطابات المرشد الأعلى للتذكير بمدى تعقد المفاوضات مع إيران، بدلاً من تنفيذها على أسس مشكوك في صحتها.

قلق في «إسرائيل»

كتب ألكس فيشمان في صحيفة «يديعوت أحرونوت»: لو كان لدى إيران اليوم صواريخ «أس 300» تنفيذية، وقّرت «إسرائيل» مهاجمتها صباح غد، لكانت هذه «أوبيرا» مختلفة تماماً، وذلك لأن هذا سيكون عائقاً أعلى بكثير من ذلك الذي وقف أمام سلاح الجو في حملة «أوبيرا» التي دمر فيها المفاعل النووي في العراق. غير أن الإيرانيين لا يملكون حالياً صواريخ كهذه، ويبدو أنه لن تكون لهم في السنتين. الثلاث سنوات القريبة المقبلة. أما في «إسرائيل»، التي لم تهاجم إيران في السنوات العشر التي كان

في تقريرنا التالي، مقال مترجم ليلوت أبرامز، إضافة إلى بعض مما نقلته صحف أميركية عن نظيراتها العبرية، والمتعلق ببيع روسيا صواريخ «أس 300» لإيران:

كتب ليلوت أبرامز:

ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» الأميركية أن الكرملين رفع الحظر رسمياً عن تقديم صواريخ «أس 300» إلى إيران، ووضع الأساس القانوني للبيع الروسي المحتمل لتقوية نظام الدفاع الجوي الإيراني. كان من المقرر تسليمها عام 2007، لكن روسيا في عام 2010، أجلت التسليم. وقد بدأ هذا بحثاً ذاته جيداً بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأميركية و«إسرائيل»: وذلك من بين أمور عدة أخرى، إذ إن امتلاك إيران مثل هذا النظام، سيؤدي إلى ضربة جوية تستهدف منشآتها وبرامجها النووية.

وما هنا تقييم استراتيجي لصواريخ «أس 300»: من دون أدنى شك، فإن نظام «سام» هو الأوسع انتشاراً في منطقة آسيا والمحيط الهادئ؛ ومنذ بداية بناء هذا النظام في سبعينات القرن الماضي، فإن نظام «PVO» السوفياتي قد تطوّر كثيراً، من خلال سلسلة من التحسينات الإضافية الأوسع، وحيالها، فإن جيش التحرير الشعبي الصيني هو ثاني أكبر مستخدم لهذه العائلة من الصواريخ، بعد الاتحاد الروسي... وبينما يُشار إلى منظومة الصواريخ الروسية «أس 300» و«أس 400» على أنها أكثر تطوراً من تلك الأميركية، فمن المؤكد أنها أسلحة تتطلب مواجهة صعبة للغاية وقدرات كبيرة لهزيمتها.

وفي عام 2010، عولت إدارة أوباما كثيراً على هذا التحرك الروسي. أشاد البيت الأبيض بهذا التعليق وكذلك بالرئيس ميدفيديف. وأوضحت «نيويورك تايمز» أن الإدارة الأميركية كانت متشوقة لبناء تعاون مع روسيا. وأضافت أن البيت الأبيض قال في تصريح أن السيد ميدفيديف، أثبت قدرته على قيادة إيران لتطبيق التزاماتها الدولية من البداية حتى النهاية. «وهذا يتطلب متابعة مكثفة بالتعاون بين روسيا والولايات المتحدة الأميركية بشكل وثيق نيابة عن مصالحنا المتبادلة والأمن العالمي».

نشرت السياسة الخارجية هذه المادة بكاملها في مقال بعنوان: «كيف أقتع فريق أوباما وروسيا بعدم بيع الأسلحة لإيران». فقد جاء القرار الروسي بصفته توزيع أرباح على إدارة أوباما، وكذلك إعادة ضبط السياسة مع روسيا، فضلاً عن أنه وصف من قبل البيت الأبيض على أنه فجرٌ قادم لعلاقة أميركية-روسية جديدة. وفي ما يلي المزيد من تصريحات المسؤولين في الإدارة الأميركية: «كان القرار جريئاً ويؤكد مدى أهميته بالنسبة إلىنا ومدى أهمية إرساء هذه الأسس بين ميدفيديف والرئيس أوباما». ويشرح المسؤولون كيف أوضحت إدارة أوباما لميدفيديف وغيره من المسؤولين الروس أن بيع صواريخ «أس 300» لإيران هو خط أحمر يفترض عدم تجاوزه...

لكن هذا كان في عام 2010 لا يزال فالخطوط الحمراء لم تعد كما كانت عليه في السابق، رحل ميدفيديف عن الإدارة الروسية، ووضحت سياسة «إعادة التعيين» مع روسيا إخراجاً جحد ذاته، تماماً كمثل أداء إدارة أوباما قدرتها على تغيير سياسة روسيا إزاء إيران.

ليس الجميع على خطا. ففي المقال عينه لـ«فورين بوليسي»، يعلق دايفيد كرايمر وهو مساعد وزير الخارجية للشؤون الديمقراطية وحقوق الإنسان في حكومة جورج دبليو بوش، ورئيس لـ«بيت الحرية»، وحيالها هو زميل بارز في معهد «ماكين»، يقول: «فلنتنظر قليلاً قبل أن نبدا الاحتفال». ويضيف كرايمر أنه و«ولاس»، فإنه من غير المستحب قول الحقيقة عن روسيا، ما دامت إدارة أوباما تأخذ بالاعتبار إعادة تعيين سياساتها مع روسيا كواحد من أهم تحديثات نجاحها على مستوى سياساتها الخارجية.

تزداد هذه الدوامة دوراً وصعوبة في عهد أوباما، فبيع صواريخ «أس 300» ليس سوى تذكير حول ما يجري، إنه أيضاً تذكير بالمخاطر المرتبطة بالمحادثات النووية الأخيرة المحتملة مع إيران. وحيالها ينتفي وجود العقوبات، وتدفق المساعدات إلى إيران، فستعزز موقعها العسكري؛ وستشعر إيران بالمزيد من الأمن والمناعة من أي هجوم مرتقب مع حيازتها مثل هذه المنظومة من الصواريخ، إنه واقعٌ قد يدعوها إلى أن تكون أكثر عدائية في تصرفاتها في الشرق الأوسط.

أخيراً، تحدّث آية الله علي خامنئي عن المحادثات النووية، وقد فوجئ المراقبون بانتقاداته حيال نجاح القادة الإيرانيين. بمن فيهم الناطق باسم البرلمان، علي لريجاني، ورئيس الحرس الثوري الجنرال محمد علي جعفري. اللذين أيضاً إعلان الأسبوع الماضي. لكن يبدو أن رد فعل المرشد الأعلى كان غير متنع وغير مرضي.

لطالما قدّم خطاب آية الله خامنئي تحدياً لأولئك الذين يسعون إلى إرساء علاقات دبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية. ويحلل بعض المعلقين عبارته، لتأخذه إيران الآثار الإيجابية ورفض الالهجة التحذيرية. فالمهمة هذه المرة هائلة: أضرت آية الله الخامنئي الأسبوع الفائت على ضرورة إنهاء

